# Comparative Literature and Interdisciplinary Studies: An Analytical-Inductive Study

# الأدب المقارن والدراسات متعددة التخصصات: دراسة تحليلية استقرائية

**Saleh Alharbi**
College of Noble Hadith and Islamic Studies, Islamic University of Madina, Saudi Arabia, Department of Comparative Literature, Stanford University, California
saleh113@alumni.gsb.stanford.edu

**Abstract**
This study explores the potential of comparative literature as a field that can be effectively integrated into interdisciplinary studies. It examines the various disciplines that intersect with comparative literary studies and are often included in comparative analysis. It also investigates the concept of "image" in comparative literature, providing examples of how this old idea interacts with contemporary theoretical frameworks. Using an analytical-inductive approach, the study reaches several key findings: it identifies the interdisciplinary potential inherent in comparative literature because of its unique nature, its historical emergence in early 19th-century Europe, and its focus on the analysis of literary works written in different languages, comparative literature has exceptional opportunities for collaboration with other disciplines—opportunities not available in other fields. One of the most influential critical studies of East-West relations has significantly shaped studies across disciplines. It underscores the importance of image studies in comparative literature and its relationship to various academic disciplines through modern theoretical perspectives.
Keywords: Arabic; Europe; Comparative; Literature; Interdisciplinary Studies

## المقدمة

تتميز الدراسات الأدبية بشكل عام بانفتاحها على التخصصات الأخرى، وذلك من جهتين رئيستين، الأولى: البنية اللغوية للنص الأدبي والتي تربطه بشكل أساسي بشتى علوم اللغة الأخرى، وتجعله محكوما بقوانين المفردات والتراكيب اللغوية، وكل ما يطرأ عليها ويتغير فيها من دلالات وإيحاءات، والثانية: من حيث الامتدادات النظرية للدراسات الأدبية والتي تمد أذرعها بنهم إلى شتى العلوم والمعارف، من البيئة المحلية أو من خارجها، فتتفاعل معها استمداداً ومناقشةً وتطبيقاً، في شتى الأجناس الأدبية.

وقلما نجد دراسة أدبية لا تنحى إلى توظيف علوم اللغة بشكل عام، فتجد علوم النحو والصرف البلاغة والعروض وغيرها من العلوم حاضرة كأدوات في التحليل الأدبي، أو في ثنايا الدراسات الأدبية، ولكن هذا لا يعد جديداً ولا مستغرباً، إذ إن الدراسة الأدبية تنتمي بجملتها إلى علوم اللغة.



Copyright © 2024, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

وتواصل الدراسات الأدبية شراكتها مع العلوم الأخرى، فعلم التاريخ يبرز بوضوح في تاريخ الأدب، أو ما يسمى الدراسات التحقيبية للأدب. فكل دراسات تاريخ الأدب تعتمد على التاريخ في تقسيماتها الرئيسية، وتجد في صفحاتها العديد من الأحداث التاريخية التي تتناول بعمق وتحليل كثيراً من الجوانب التاريخية والاجتماعية، لكل عصر من العصور. بل لا تكاد دراسة عن شاعر أو نص أدبي إلا وعرضت بتفصيل كاف للظروف التاريخية التي أحاطت بالنص، أو بالشخصية الأدبية.

والنظريات الأدبية التي تقود الدراسات الأدبية وتشكل توجهاتها الرئيسة هي في مجملها ابنة الرؤية المعرفية السائدة في زمنها، بل إنها في كثير من الأحيان نتاج لهذه الرؤية وجزء منها. وهي بهذا متأثرة ومتفاعلة مع النظريات الفلسفية والفكرية التي تسود الدراسات الإنسانية، وتشكل التوجه العالمي في الفلسفة. وهو ما يجعل الدراسات الأدبية عميقة الصلة بالفلسفة والاتجاهات الفكرية. فالقومية كاتجاه فكري وجدت صداها في الدراسات الأدبية والنقدية، وكذلك الشأن في الاشتراكية والوجودية والحداثة وغيرها من التيارات، التي سرعان ما وجدت في الأدب صداها وأثرها سواء في نصوصه الشعرية والنثرية أو في نظرياته النقدية. بل ثمة علوم أخرى تركت بصمتها الواضحة على الدراسة الأدبية، كعلم الاجتماع الذي انعكس بوضوح في الدراسات الواقعية للنصوص الأدبية، كما استفاد منها كثير من دارسي الشخصيات الأدبية. وعلم النفس الذي ظهر بقوة في السياق الأدبي في القرن الماضي، رغم أن النقد القديم لم يخل من إشارات نفسية كثيرة يجدها الباحث في عدد من مصادر النقد القديم؛ إلا أن دخوله الأبرز إلى عالم النقد الأدبي كان على يد عالم النفس الشهير فرويد، الذي استخدام عددا من الشخصيات الروائية نموذجاً لنظرياته في علم النفس؛ وسرعان ما وجدت هذه الموجة صداها لدى الدارسين في الأدب فامتلأت الساحة بالدراسات النفسية للأدباء القدماء منهم والمحدثين.

ولهذا فالدراسات الأدبية بطبيعتها واسعة الصدر في الاستفادة من العلوم الأخرى وتوظيفها، والأدب بطبيعته منفتح للتجريب والتجديد، ودائم التلفت إلى ما يؤثر في حياة الناس، فالناس هم مادته وموضوعه الذي يطرقه في أشعاره ورواياته ومسرحياته، وسائر الفنون الأدبية. والأدب المقارن بوصفه أحد أفرع الأدب، يشترك في ميزة الانفتاح على العلوم الأخرى، فكل ما سبق مما تميز به الأدب بشكل عام ينطبق على الأدب المقارن، وربما زاد الأدب المقارن من نصيبه في الانفتاح والتوسع وذلك بسبب طبيعة الدراسات المقارنة التي تقف دائما على قاعدتين متباعدتين، تفصل بينهما اللغة والثقافة والهوية. فهو يقارن بين أدبين مختلفين، وثقافتين متباينتين، وأزمنة قد تكون متباعدة. ولذا كان من واجبه استيعاب الفروق بينهما والانفتاح على كل ما يحيط بهذين الأدبين من ظروف أدبية وثقافية مختلفة. مع الوعي بأن هذا التخصص نشأ وازدهر في ظل ظروف تاريخية وفكرية معينة ساعدت على انتشاره وازدهاره، وسرعان ما تضاءل الحماس المصاحب لهذا العلم وظهرت الأصوات



Copyright © 2024, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

الداعية إلى تجاوزه؛ باعتباره تخصصاً تجاوزه الزمن، بل كتبت المقالات التي تدعي موت الأدب المقارن وتدعو إلى تجاوزه إلى الأدب العالمي، أو الدراسات الثقافية، إلى غيرها من الاتجاهات الجديدة. وفي ظل هذين الحقيقتين: عوامل الانفتاح الكثيرة التي يملكها الأدب المقارن من جهة، وتضاؤل الاهتمام به في البيئات الأكاديمية والعلمية من جهة أخرى؛ يناقش هذا البحث العلمي العلاقة بين الأدب المقارن والدراسات البينية، في محاولة لاكتشاف الجوانب التي يمكن أن يستثمرها الأدب المقارن في مجال الدراسات البينية. والإمكانات التي تؤهل هذا الأدب ليكون أحد أكثر الدراسات الإنسانية استفادة وتفاعلاً مع غيره من العلوم.

وذلك من خلال تمهيد يناقش فكرة التخصص العلمي في ضوء نظرية المعرفة، منذ نشأتها وحتى ظهور الدعوة إلى التخصصات البينية، كما يناقش فرص الأدب المقارن في الاستفادة من الانفتاح المعرفي بشكل عام. يليه ثلاثة مباحث، أولها: يدرس مقومات البينية في الدرس المقارن، فيتتبع ظروف نشأة الأدب المقارن، ملقياً الضوء على أبرز الأسماء التي شاركت في صياغة التصور حوله، محاولاً إثبات أن الأدب المقارن إنما نشأ في ظروف الانفتاح على الأخر، كما استفاد من التقدم العلمي، وانفتاح العلوم بعضها على بعض. وثانيها: يناقش علاقة الأدب المقارن بالعلوم المختلفة، وذلك بالإشارة إلى أبرز العلوم التي يستثمرها الدرس الأدبي المقارن، لتتضح العلاقة الأصيلة بين الأدب المقارن والعلوم الأخرى.

فيما جاء ثالث هذه المباحث لاستشراف مستقبل الدراسات الأدبية المقارنة، في ضوء الدراسات البينية، مع التركيز على دراسات الصورة، التي تعد أحد مجالات الدراسات الأدبية المقارنة منذ نشأتها، ولكنها استفادت كثيراً من النظريات الأدبية الحديثة. ولعل هذه الأوراق تبين شيئا من الفرص التي يمكن لدراسات الصورة الاستفادة منها، وذلك لسهولة دخولها في عدد كبير من الدراسات والتخصصات الأخرى.

إن الغرض الأساس من هذه الورقة العلمية؛ هو المساهمة في توسيع آفاق الدراسة الأدبية، وفتح نوافذ الدرس الأدبي بشكل عام، والمقارن بشكل خاص، وذلك بالنظر إلى هذه التخصصات نظرة شمولية تعيد تقييم منجزها وفق ظروف العصر واحتياجاته، كما تستشرف المستقبل والفرص التي يمكن من خلالها أن يجدد الباحثون دراساتهم، وأن يضيفوا إلى المعرفة من خلال أبحاثهم. كما أن هذا البحث هو محاولة لإعادة التفكير في التخصصات الإنسانية بوصفها عناصر يضيف بعضها إلى بعض، ويثري بعضها بعضاً، وهو كذلك فرصة لتجديد البحث الأدبي، مما يعيد الوهج والاهتمام للأدب المقارن، كما يفتح الافاق لمزيد من الثراء في الدراسات البينية في العلوم الإنسانية.



Copyright © 2024, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

**منهجية البحث**

منهج البحث المستخدم هو التحليل الاستقرائي. منهج تفكير تنتقل من أشياء محددة إلى استنتاجات عامة، باستخدام ملاحظات ظواهر معينة لبناء نظريات أو مفاهيم أو تعميمات. يتم تنظيم الحقائق لتشكيل تعميمات أوسع. الاستقراء هو عملية تنتج قوانين عامة من خلال الخبرة والملاحظة، وجمع البيانات التجريبية وتحليلها بشكل منهجي.

تتم مراحل البحث في عدة مراحل مهمة، وهي: الملاحظة، وجمع البيانات أو المعلومات من مصادر مختلفة ذات صلة، والتحليل يتم تحليل البيانات التي تم جمعها للعثور على أنماط أو انتظامات أو علاقات بين الظواهر، والتعميم أو الاستنتاجات العامة. هذا التعميم هو الأساس لنظرية أو مبدأ جديد ينطبق على نطاق أوسع، والتحقق للتأكد من صحته. وهذا مهم لتجنب الأخطاء المنطقية.

**نتائج البحث ةمناقشتها**

بدو التركيز على التخصص العلمي الدقيق في أي مجال من مجالات المعرفة العلمية اليوم هو السبيل الأمثل للخروج بنتائج علمية أكثر دقة وفاعلية. ومن الواضح أن زيادة الاهتمام بأي فرع من فروع المعرفة سيخلق عدداً من التخصصات الدقيقة في هذا الفرع. ولهذا نجد التخصصات العلمية تتزايد في ظل كثرة التخصصات التي يزيد التركيز عليها. وبالرجوع إلى أصل تكون المعرفة الإنسانية يتبين لنا أن الفلسفة بمفهومها العام كانت الأصل الذي تفرعت منه بقية التخصصات. فقد عُدت الفلسفة "أم العلوم" إذ كانت العلوم كلها بشقيها النظري والتطبيقي أجزاءاً من الفلسفة، فالفيلسوف (محب الحكمة) هو المشتغل بالعلم في أي تخصص كان(Adnan et al., 2014) ، وقد أدى انفصال العلوم تاريخيا عن الفلسفة إلى ظهور التخصصات المختلفة في مجالات المعرفة العلمية، سواء من جهة المواضيع المتعددة، أو المناهج المختلفة، أو المفاهيم الأكثر دقة واختصاصا. وقد كان للتخصص (Discipline) نتائج مهمة في تطور العلوم بشكل عام، سواء من حيث دقة القوانين المتوصل إليها، أو من حيث القدرة على التحكم في الظواهر المدروسة، ويبدو أن التخصص قد أدى بشكل مطّرد إلى مزيد من النجاعة سواءً من حيث معرفة الظواهر أو السيطرة عليها (Al-Shabi ، 194 :1999).

ومع ذلك فإن تصنيف العلوم ليس بالأمر الجديد، بل يمكن الرجوع به إلى أفلاطون في كتابه الجمهورية حيث قسمها إلى ثلاثة علوم أو معارف دنيا وهي الطبيعية ووسطى وهي الرياضية وعليا وهي معرفة المبدأ الأول والمثل، أما أرسطو فيقسم العلوم إلى نظرية وعملية وشعرية. وتعد صورة "شجرة الفلسفة" التي رسمها روني ديكارت (Descartes René) في كتابه مبادئ الفلسفة، معبرة عن فكرة



Copyright © 2024, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

التصنيف، حيث جعل الميتافيزيقا بمثابة الجذور والفيزياء الجذع، أما الأغصان فهي بقية العلوم مثل الطب والميكانيكا والأخلاق (Bughfala، 284 :2017).

يقسم بعضهم فروع المعرفة إلى ثلاث أقسام الرئيسية. القسم الأول العلوم الطبيعية الفيزيائي والكيميائي والبيولوجيا والجيولوجيا والزراعة ومختلف المجالات الهندسية والطبية. القسم الثاني العلوم الاجتماعية علم النفس والقانون وعلم الإنسان وعلم الاتصال والاقتصاد والعلوم السياسية والاجتماعية. القسم الثالث العلوم الإنسانية تشمل الفنون أو اللغة والأدب والتاريخ والفلسفة والدين والمسرح والموسيقى ( Barakat، 9-4 :2016). وجهود العلماء المسلمين في تصنيف العلوم كثيرة وقديمة، قد ذكر المؤرخون عدداً من الجهود العلمية العظيمة التي قام بها عدد من علماء المسلمين من أمثال جابر بن حيان والكندي وأبو الربيع شهاب الدين والفارابي وأبو حيان التوحيدي وابن حزم وابن النديم والغزالي، والشاطبي، وابن خلدون، وغيرهم. وإن كان منطلق البحث يختلف بين العلماء المسلمين الذين ينطلقون من مرجعية الكتاب والسنة وبين اليونانيين الذين كانوا يصدرون من رؤى فلسفية غير ثابتة للعلوم. وبالتالي فإن تصنيف العلوم وتقسيمها إلى تخصصات مختلفة، ليس بالأمر الجديد، بل هو مسار طبيعي لسائر العلوم والمعارف في محاولة للخروج منها بأفضل النتائج البحثية والعلمية. لكن الفروق المعرفية بين التخصصات أصبحت أشد وضوحاً في القرن التاسع عشر، حيث غدت التخصصات متمايزة في قوانينها ومبادئها ومناهجها. وقد أصبح التخصص هو العلم الحقيقي، لأن معنى العلم يتضمن في ذاته فكرة التخصص بمعنى أن النظرة العامة تنتظر من العالم أن يكون مختصا بفرع علمي بينما المطلع على الفروع المختلفة يسمى مثقفاً لا عالماً أو متخصصاً.

وفضلا عن ذلك فإن الفصل بين التخصصات العلمية يندرج ضمن ممارسة مرتبطة بالتعليم والبحث العلمي، حيث يتطابق الفصل بين التخصصات مع الفصل بين الكليات والأقسام العلمية بهدف السيطرة معرفيا على المواضيع المدروسة في ضوء نماذج تفسيرية ومناهج محددة (Al-Shabi، 195 :1999). ولكن ذلك لم يحل دون ظهور انتقادات موجهة إلى فكرة التخصص. "وقد بدأ الأمر خلال النصف الثاني من القرن العشرين، حيث ظهرت تيارات فكرية، مع كارل بوبر (Karl Popper) وغاستون باشالر ( Bachelard Gaston)وإيليا بريجوجين (Prigogine Ilya) وإيزابيل ستنجرز (Stengers Isabelle)، تشكك في منزلة التخصصات العلمية ذاتها وتنظيمها الاجتماعي و ادعاءاتها الابستيمولوجية"(Al-Shabi ، 195 :1999). فالروابط الدقيقة بين التخصصات العلمية ذاتها أو بين التخصصات العلمية والمصالح الاقتصادية والعسكرية لا تخفى على الباحث الفطن.



Copyright © 2024, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

كما أن الإغراق في التخصص العلمي يغفر الأهمية الكبرى لتكامل العلوم وللطبيعة الإنسانية المعقدة التي لا تلخصها نظرية واحدة ولا يمكن أن يحيط بها تخصص واحد وهو ما يجعل العلوم الإنسانية بالذات أقرب إلى التكامل منها إلى التفرد.

كل هذا قاد إلى اهتمام أكبر بما يسمى العلوم البينية، ووعي متزايد بأهميتها. وهو محاولة الاستفادة من سائر هذه التخصصات للإجابة على الأسئلة الملحة، وإيجاد حلول للمشكلات الطارئة، التي لا يستطيع الإجابة عليها ولا حل إشكالياتها تخصص واحد منفرد. ولذلك يعرف ويليام نويل (W.H.Newell) وجولي تومسن كلاين (J.T.Klein) الدراسات البينية بقولهم " إنّ الدراسة البينية دراسة مرجعها حقلان معرفيان فأكثر، وهي دراسة تجيب عن أسئلة وعن مشاكل يعسر على نظام معرفي واحد حلها"(Newell, 2018.) كما يمكن تعريفها بأنها "الدراسات التي تلتقي في إطارها علوم مختلفة منها العلوم الإنسانية والاجتماعية وهي علوم تعد في الأساس مستقلة بعضها عن بعض". (Al-Baz'i، 2013) وهو ما يؤكده الباحث الألماني إرنست روبرت كريتيوس صاحب الكتاب الشهير "الأدب الأوروبي والعصور الوسطى اللاتينية" حين يقول: التخصص دون رؤية شمولية أعمى، والرؤية الشمولية دون تخصص جوفاء".[1]( Vick, 2004, p164)

ويعود ورود مصطلح الدراسات البينية في أول ظهور له إلى العشرينات من القرن الماضي (Vick, 2004, p164) ., وإن كان لم يتبلور وتتضح معالمه بشكل كبير ويتزايد الاهتمام به إلا في السبعينات وما بعدها. ومن الجلي أن ظهور هذا المصطلح إنما كان لمعالجة المشكلات البحثية التي تنشأ في سياق التطبيق. ومن الإشارات المهمة ما أشار إليه بانجورا أن الدعوة إلى علوم بينية ستكون دعوة قاصرة إذا اكتفت بالجمع بين الفروع المختلفة، ولكنها ستكون مثمرة إذا تركزت على البحث العلمي ومن ثم أشار إلى ضرورة إيجاد موضوع بحثي مشترك بين التخصصات المختلفة لتحقيق حركة تبادل المعارف والمعلومات.

من أمثلة التخصصات البينية علم النفس الاجتماعي وعلم الاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع الأدبي وعلم اللغة النفسي، بل أبعد من ذلك نجد اشتراكا بين علم اللغة والحاسوب أنشأ علم اللغة الحاسوبي وبين الطب والاجتماع يبرز في طب الأسرة والتخطيط الطبي ومنها chat GTP وهو القائم على التعاون بين البيانات اللغوية والذكاء الحاسوبي.

من جهة أخرى لا تكاد تطالع كتاباً في الأدب المقارن إلا وتجد نقاشا طويلا حول مفهوم الأدب المقارن، إذ يكاد الباحثون أن يتفقوا على أن هذا المصطلح غير دقيق في التعبير عن مادته العلمية، ويشتكون كثيرا من ضبابية المصطلح، ودلالته الغامضة، ومفهومه الذي لم يتفق عليه بعد. ومن هنا



Copyright © 2024, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

تعدد التسميات التي أطلقها الباحثون على علم الأدب المقارن (هنري، ١٩٩٤) و (Byir, Brunil، 1986) و (بيير و ميشوا وروسو ١٩٨٣) و (الخطيب، ١٩٩٢) و (Abbud'، 1999). وهو ما أدى بدوره إلى ظهور مصطلحات رديفة للأدب المقارن، كالأدب العالمي والأدب العام والكونية الأدبية. (غويار، ١٩٨٨،ص ٣٠) و (Ubayd'،29 :2019).

ولعل هذا الاختلاف والضبابية في مفهوم المصطلح عائد إلى الطبيعة غير المستقرة لهذه الدراسات المقارنة فهي تقف على منتجين أدبيين في لغتين مختلفتين وضمن ثقافتين متباينتين. وإذا كان الأدب بطبيعته يتعامل مع كل قضايا الإنسان، قديمها وحديثها وفكريها ونفسيها واجتماعيها واقتصاديها، فالأدب المقارن يتعامل مع هذا كله ويزيد عليه في اتساع الرقعة التي يعالجها واختلاف اللغات التي يدرسها والثقافات التي يتعامل معها.

فالأدب بشكل عام يلج إلى كل العلوم ويتفاعل معها لأنها تعبر عن الإنسان الذي أنتج هذه العلوم واستفاد منها وتأثر بها أيضا، فالروايات والمسرحيات التاريخية تتعامل مع التاريخ وتناقش قضاياه وحقائقه وتبني على أحداثه، وروايات الخيال العلمي تتعامل مع النظريات العلمية، وتبني عليها أفقها الروائي، وكذلك الأمر في سائر النتاج الأدبي الذي يتصل بالأديان والعقائد فهو يحتاج إلى معرفة بها واطلاع واسع عليها، واستثمار للحقائق فيهما.

والأدب المقارن يرث هذا كله ويزيد عليه، إذ يحاول الوقوف على أرض مشتركة بين ثقافتين مختلفتين، مما يدفعه إلى كثير من البحث والتنقيب في الخلفيات التاريخية والثقافية والعلمية لهذه النصوص وإذا كان هذا المصطلح يبعث على شيء من التشويش في مفهومه الدقيق؛ إلا أنه من جهة أخرى يفتح النوافذ للباحثين للانطلاق بحرية أكبر في ضوء الحدود غير الواضحة لهذا المصطلح وهو ما ينعكس على الدراسات المقارنة في اللغات المختلفة التي تنزع منازع مختلفة في الاستفادة من مختلف العلوم وتوظيف مختلف المناهج والاستفادة من النظريات المتعددة.

**مقومات البينية في الدرس المقارن**

ثمة عدد من المقومات الخاصة بالأدب المقارن التي تجعله أكثر قدرة على التفاعل مع غيره من العلوم، والاستفادة من شتى المناهج وهو ما يجعله أكثر قابلية لتطبيق الدراسات البينية، وذلك عائد إلى نشأة الأدب المقارن نفسه. فلو عدنا إلى زمن نشأة الأدب المقارن وبحثنا الأسباب التي رافقت نشأته لوجدنا عددا من الدلالات المثيرة للانتباه والتي تجعله أكثر قابلية للانفتاح على غيره من العلوم.

نشأ الأدب المقارن في بداية القرن التاسع عشر، وهو القرن الذي شهد ما يسمى بالدولة القومية، أو الدولة الوطنية، وهو اللقب الذي أطلق على سائر الدول المشهورة في أوروبا حينئذ، وبغض النظر يعني ما يعنيه هذا التعبير فكل هذه الدول كانت مرتبطة ارتباطاُ وثيقا بالثقافة



Copyright © 2024, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

الوطنية، مما يعني الانكفاء على الذات، والاعتزاز بالثقافة المحلية، والتقليل من شأن الثقافات الأخرى. ولكن هذا العصر نفسه هو العصر الذي استفاد من عصر الأنوار، وظهرت فيه الدعوات الواضحة للاطلاع على الآداب الأخرى، والاستفادة منها، هذا التناقض هو الذي دعا سوزان باسنيت إلى عنونته ب"المفارقة في بدايات الأدب المقارن". (Basnit،25 :1999)

وعلى كل حال، فقد بدأ ينمو في كل أوروبا جو أدبي يتجه إلى الانفتاح على الآخرين، والاهتمام بالآداب المختلفة، وبطريقة التفكير عند الشعوب المغايرة، وهو ما جعل الطاهر أحمد مكي يعنون له ب "انهيار أسوار العزلة". (Makki، 34 :2002) وقد مارست فرنسا تأثيرا هائلا على جيرانها في نماذج الملابس والتقاليد والحياة الباذخة والموسيقى، وكذلك في الفكر خاصة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وهو الزمن الذي اندلعت فيه الثورة الفرنسية. بل أصبحت اللغة الفرنسية هي لغة الطبقة الراقية في ألمانيا وذكروا أن الزائرة إلى برلين في تلك السنوات يظن نفسه في باريس قد كان فريدريك الثاني إمبراطور ألمانيا لا يقدر إلا الكتب الواردة من باريس وعندي ما وعندما أسست أكاديمية برلين تقرر أن تكتب الأبحاث المقدمة إليها باللغة الفرنسية بدلا من اللغة الألمانية. (Makki، 38 :2002)

في روسيا كانت كاثرين الثانية ذات الأصول الألمانية قد أخذت على عاتقها أن تنقل إلى روسيا حضارة أوروبية خالصة، وقد كانت تفتخر بتلمذتها على يد فولتير، وتشجع شعراء بطرسبيرغ على تقليد الأعمال الفرنسية. (Makki، 35 :2002) وفتحت أبواب التأثير في شتى الآداب الأوروبية، ولم تسلم إنجلترا إذ وصلتها الأفكار الفرنسية التحررية، وكذلك أصبح تقليد ما هو فرنسي شائعا في بولندا، وسرعان ما عم التأثير الفرنسي سائر أوروبا حتى وصل إلى الأراضي الاسكندنافية. (Makki، 38 :2002) هذا الانفتاح أثر على الكثير من الأفكار الفلسفية التي اتجهت إلى العالمية فقد كان الألماني ليسينج الفيلسوف المتميز الباحث الكبير لا يتردد في الإعلان عن نفسه مواطنا عالميا يحب أن يشتهر بذلك بدلا من الاشتهار بوطنيته أو النسبة إلى ألمانيا. (.Gotthold Ephraim lessing," n.d")

وكان من أكثرهم تميزا فولتير الفيلسوف الفرنسي الأكثر تأثيراً في عصره (Duyurant، 3 :1945)، وهو من الذين اشتهروا بانفتاحهم على الآداب والأفكار والفلسفات المختلفة، وقد عاش فولتير نفسه منفياً في إنجلترا عدداً من السنوات، وعاش كذلك في بروسيا سنوات أخرى، ثم قرر أن يستقل بنفسه في قرية على الحدود الفرنسية السويسرية، ليعيش فيها بقية عمره، يكتب ويناقش بحرية وهو من أوائل من أشار إلى الأدباء الكبار في اللغات الأخرى وقد أشاد بأدب شكسبير وملاحم ميلتون وكذلك وفلسفة جون لوك الفيلسوف الإنجليزي واطلع على اختراعات نيوتن. (Makki، 42-40 :2002) إلا أنه من الصعب تجاوز تجربة خوان أندريس الراهب الإسباني الذي هاجر إلى إيطاليا، والذي يقل ذكره في دراسات الباحثين، وهو أحد النماذج المنفتحة على الثقافة العالمية بشكل لافت ومبهج. ألف



Copyright © 2024, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

إخوان أندريس في إيطاليا كتابا عن الموسيقى عند العرب، كما ألف كتابا عنوانه (أصول الأدب بعامة وتطوراته وحالتها الراهنة) باللغة الإيطالية، جاء في سبعة أجزاء كبيرة، وقد اطلع فيه على عدد من الآداب الأوروبية. والمميز في تجربة خوان أنه لم يكتف بالاطلاع على الآداب الأوروبية المختلفة ولكنه مد أفقه ليشرك الأدب العربي خارج حدود أوروبا، فقد خصص ما يقارب الجزئين للحديث عن الفكر العربي، وضح فيها التأثيرات المتبادلة بين الحضارات، ولعله أول من وضع يده على تأثير الأدب العربي في الآداب الأوروبية ودرس ذلك على نحو منهجي. (Makki، 42 :2002).

بل إن مدام دي ستايل التي يعد كتابها (عن ألمانيا) أول مؤلف في الأدب المقارن -إذ إنها حاولت في هذا الكتاب إطلاع القارئ الفرنسي على الأدب الألماني، والمقارنة بين النماذج المختلفة في الأدبين الفرنسي والألماني- كانت هي نفسها مثالاً للانفتاح على الثقافات الأخرى، فقد استفادت من نفيها مرتين، وعاشت عدداً من السنوات في ألمانيا، فأخرجت هذا الكتاب الذي عد مؤسساً للأدب المقارن، كما كان النموذج للانفتاح على الثقافات المختلفة. (Makki، 64 :2002)

هذه النماذج المنفتحة على الآخر وغيرها كانت هي بوادر نشأة الأدب المقارن، وهو ما أشاع جوا من الإنسانية والانفتاح على الدرس الأدبي في أوروبا، مما حدى بايتامبل إلى القول بأن الغرض من الأدب المقارن هو الإنسانية. (رود، سكاربيت،طوميش، واخرون، ٢٠٢١، ص ٩٨). وسرعان ما تمخض هذا الانفتاح عن دراسة منهجية للأدب المقارن، في فرنسا خاصة، ثم تسرب منها إلى سائر الآداب الأوروبية والعالمية. وهو ما يؤكد أن نشأة الأدب المقارن كانت في جوهرها مبنية على فكرة الانفتاح على الآخر، ليس على أدبه فقط، بل على ثقافته وتاريخه وعلومه المختلفة. وهو ما يضطره إلى سبر أغوار التاريخ، وبحث سير الأدباء، وتتبع انتقال الكتب والطبعات والنسخ والترجمات المختلفة، لكي يستطيع الباحث إثبات إطلاع المتأخر على أدب المتقدم، أو بعبارة أخرى لكي يثبت علمياً أن التأثر الأدبي واقع بين أدباء ينتمون إلى لغتين المختلفتين.

وكانت الظروف التاريخية والصناعية التي واكبت تلك الفترة داعمة لهذا الانفتاح، وميسرة لمزيد من التواصل بين الشعوب، فقد كان للثورة الصناعية أثرها الكبير على حياة الناس، إذا سهلت المواصلات، وكثرت المطبوعات، وانتشر التعليم، وبالتالي سهل اطلاع الناس على الثقافات الأخرى، ولا يمكن فصل هذه الظواهر كلها عما تبعها من استعمار غطى غالب العالم القديم، وهو الاستعمار الذي كان دائماً مصحوباً بدراسات علمية واجتماعية وأدبية عن شتى الشعوب، وفي المقابل أشعل هذا الجموح الاستعماري خيال الأدباء والمغامرين، ودفعهم لاكتشاف العالم الجديد والاطلاع على الشعوب المختلفة.

من جهة أخرى لا يغفل محمد غنيمي هلال الإشارة إلى أثر الثورة العلمية في القرن التاسع عشر في نشأة الأدب المقارن، فيرى أنها خلقت اتجاهاً عاماً إلى البحث عن أصول الأشياء، والتنقيب



Copyright © 2024, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

عن عللها وأسبابها، وكان لهذه النهضة العلمية أثرها العميق في العلوم الإنسانية والعملية معا، ويشير بشكل خاص إلى داروين ونظرياته الشهيرة في التطور والنشوء والارتقاء، ويتحدث عن كتابه نشأة الأنواع بطريقة الاختيار الطبيعي، رغم أن هذا الكتاب يعالج مسألة علمية بيولوجية بحتة؛ إلا أنه كان سبباً في تشجيع الاتجاه الذي يبحث في أصول الأشياء والنظم الاجتماعية والأديان متجهاً إلى تفسير هذه الظواهر تفسيراً علمياً مادياً. (هلال،١٩٦٤، ص ٥٦) ويطيل محمد غنيمي هلال الحديث عن هيوبوليت تين الذي رأى أنه حاول تطبيق النظريات العلمية في الأدب المقارن، وجاستون باري الذي يعده أكثر النقاد ميلا إلى تطبيق النظريات العلمية في الأدب المقارن، خاصة في دراسته عن الأساطير والخرافات الشعبية (هلال،١٩٦٤، ص ٥٥) وبروتينير ١٩٠٦ الذي زعم أن الجنس الأدبي قد تطور ليكون جنساً أدبياً آخر كالفصائل الحيوانية عند داروين. (هلال،١٩٦٤، ص ٧٦) والخلاصة أن النهضة العلمية وإن بدت بعيدة نظرياً عن تخصص الأدب المقارن؛ إلا أنها كانت ذات دور فاعل في التحولات التاريخية المؤسسة لهذا العلم، ولعلها كانت سببا رئيسا في خلقه وإيجاده.

وهكذا يتضح لنا الجو الذي نشأ فيه الأدب المقارن، وقد كان جواً مشبعاً بالانفتاح والبحث عن الجديد والتفاعل بين العلوم، واطلاع على الشعوب المختلفة، وهو ما يجعلنا واثقين من أن نشأة الأدب المقارن جعلته أكثر قدرة على الاستفادة من العلوم الأخرى، وبالتالي أكثر قابلية للدراسات البينية.

**الأدب المقارن والعلوم المختلفة**

لعل من الواضح لكل قارئ في كتب الأدب المقارن أن أحد المواضيع التي يحب أن يستفتح بها كثير من المؤلفين كتبهم موضوع يعنونونه ب(شروط الباحث المقارن)، أو (عدة الباحث المقارن)، أو (المهارات التي يحتاج إليها الباحث المقارن)، أو غير ذلك من العناوين التي تعالج هذا الموضوع وتشير إليه.

وحين تقرأ في تفاصيل هذه الشروط، أو هذه العدة المطلوبة، والمهارات المشار إليها؛ نجد قائمة طويلة من المعارف والعلوم التي يرونها شرطاً أساسياً لكل مشتغل في البحث المقارن، فهم يشترطون المعرفة العميقة بتاريخ أدب أمة الدارس، والعلم بأدب الأمة التي يقارن بها، كما يشترطون اطلاعه التام على تاريخ الأمتين، والمعرفة بتاريخ النقد وقضاياه، ومعرفة أبرز الوقائع الأدبية العالمية، كما أن معرفة اللغة وإتقانها أمر لا غنى عنه لدارس الأدب المقارن، وهم لا يغفلون عن الإشارة إلى الاطلاع على المراجع العامة في الأدب، إضافة إلى معرفة طرائق البحث. وهي كما ترى قائمة طويلة من المعارف والعلوم لا تقتصر على الأدب وحده، وإنما تمتد لتشمل المعرفة العميقة بالتاريخ والثقافة وعلوم أخرى. ويكفي إدراك التأثير الكبير الذي تمثله علوم اللغة على الأدب المقارن، وهو ما جعل



Copyright © 2024, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

الدرس المقارني ينفتح على سائر المؤثرات اللغوية من جهة؛ ويحاول الالتفاف على الأثر اللغوي بالتركيز على الأفكار من جهة أخرى.

وقد رفعت اللسانيات لواء هذا التداخل عندما انفتحت على العلوم الأخرى لإعطاء تفسير مغاير لعلاقة اللغة بالمجتمع وبالنفس البشرية وغيرها. فظهرت اتجاهات لسانية مختلفة كاللسانيات الاجتماعية وعلم اللغة النفسي، والتقت بفلسفة اللغة والوضعية المنطقية التي كانت الوجه الآخر للبنيوية اللسانية وهي تجتر حمولة البنية الأساسية من الفلسفة، وتجعل منها مفهوماً متعدداً تتجاوز بها الحيادية، وتقتحم مجال الرياضيات وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والتاريخ وغيرها، فبدت هذه المقولة كأنها جاءت لتحل إشكالاً منهجياً سرعان ما فسح المجال لعدد من المفاهيم بمبادلات سياقية، انتهت إلى ما يشبه الانفجار المعرفي، وكان لزاما أن تعاود المناهج البنيوية إدماج ذاتها ضمن ما يسمى بالدراسات البينية، والاستقرار حول حقلها الأثير الذي هو اللغة (Belaala, 2017, p. 249-263)

وكل هذا ينعكس بدوره على النص الأدبي الذي هو مادة الأدب المقارن. وقد نبه المقارنون مبكراً إلى الأهمية القصوى التي تمثلها اللغة في الدرس المقارن، فالنص الأدبي محكوم بقواعد اللغة التي كتب بها، كما أنه ملتزم بحدودها الثقافية والمعرفية والإيحائية، مما يجعل نقل النص الأدبي من لغة إلى أخرى أمراً محفوفا بالمخاطر إذ يكاد أن يكون من المستحيل على المترجم أن ينقل النص الأدبي إلى لغة أخرى، ليؤديه بمثل اللغة الأصلية التي كتب بها.

ولعل ذلك كله ما دفع الجاحظ منذ وقت قديم أن ينفي إمكانية ترجمة العمل الأدبي،(الجاحظ، ١٩٩٦، ص ٧٤) ولكن العمل المقارن لا يمكن أن يتم إلا باستخدام الترجمة، فرغم إتقان المؤلف أو المقارن للغتين إتقاناً تاماً إلا أنه بحاجة إلى أن يترجم أحد النصين إلى اللغة الأخرى لتستقيم له المقارنة، وهذا ما دفع كثيراً من المؤلفين في الدرس المقارن إلى تخصيص فصل كامل وربما أكثر لمناقشة الترجمة الأدبية وقضاياها وأثرها في الدرس المقارن. (Baju، 157 :1997) و(Basnit، 157 :1999) و(Abbud'، 217-183 :1999)و (Dominighiz، 137 :2017)

من جهة أخرى تسمح المقارنة بالالتفات على حاجز اللغة؛ لأن المقارنات بطبيعتها تميل إلى التركيز على الأفكار لا على الأساليب. فهي تدرس في الأفكار العامة، والصور الظاهرة، والتشبيهات الواضحة، بدلاً من تركيزها على الألفاظ والعبارات والكلمات، في اللغات المختلفة. ولعل ذلك عائد إلى سهولة انتقال الأفكار من لغة إلى لغة، وتبنيها في ثقافة مختلفة. كما أنه من السهل على المؤلف الأدبي أن ينقل قصة من بيئة عربية إلى بيئة مختلفة، وليس الأمر كذلك بالنسبة للأساليب والألفاظ. وهو ما يجعل دراسة الأفكار والموضوعات أكثر جدوى للدارس المقارن، ونتيجة لذلك قد تجد نصا



Copyright © 2024, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

يعد ضعيفاً وهامشياً في ثقافة ما يتحول بشكل غير متوقع ليكون نصاً مركزياً ذا أهمية كبيرة في الثقافة المترجم إليها.

ومثالاً على ذلك يمكن النظر إلى ألف ليلة وليلة هذا النص العربي الذي تم تجاهله في الثقافة العربية، فلا نجد أديبا عربيا قديماً يستشهد به، أو يحيل عليه، على امتداد تاريخنا الأدبي، فضلا عن توظيفها، أو الاستفادة منها، أو الإشادة بها، ولكن حين ترجم هذا النص اللغة الفرنسية على يد أنطوان غالان سنة ١٧٠٤ ، سرعان ما تبوأ هذا النص مكانة مرموقة في الأدب العالمي، بل أصبح أهم نص أدبي عربي يترجم إلى اللغات العالمية وهو ما سمح له بإعادة الاعتبار في لغته الأم اللغة العربية. (Al-Baṭuṭi، 2005: 60). وإذا تجاوزنا العلوم اللغوية نجد أن أبرز العلوم مشاركة في الدرس المقارن هو علم التاريخ، ذلك أن غالب الدراسات المقارنة؛ خاصة ما كان منها على المنهج الفرنسي ترتكز بشكل رئيسي على دراسة الظروف التاريخية المحيطة بالنصوص المدروسة. فالباحث المقارن وفق المنهج الفرنسي مطالب بإثبات اللقاء التاريخي بين المتأثر والمؤثر، وذلك بتفتيش دهاليز التاريخ، والفحص في كتبه، محاولا إيجاد رابط تاريخي حقيقي يمكنه من إثبات أن التأثر واقع بناء على تواصل حقيقي عابر للغة.

من جهة أخرى يبدو علم الإعلام الذي أخذ حظوة كبيرة في العلوم الإنسانية المعاصرة، شريكاً أساسياً للأدب المقارن في كثير من تطبيقاته، خاصة تطبيقات الصورة، فقلما تقوم دراسة لتبع صورة أمة لدى أمة أخرى إلا وتتخذ من الإعلام مادة أساسية لدراستها، فأصبح تطبيق الأدب المقارن -في كثير من الدراسات- قائما على الإعلام كقيامه على النصوص الأدبية.

والإعلام بدوره صار بوابة لكثير من العلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية فالإعلاميون يناقشون في خطاباتهم الإعلامية ومقالاتهم وبرامجهم هذه القضايا التي تتعرض للأمم الأخرى وتخلق صورة متخيلة عنها يأتي دور الأدب المقارن لدراسة هذه الصورة المتخيلة ضمن الخطاب الإعلامي بكل تفرعاته. وبما أن الأدب المقارن في حقيقته يدرس العلاقات الأدبية بين الأمم، فهو إنما يدرس التواصل الأدبي بينهم، ومع زيادة القدرة على التواصل بين الشعوب المختلفة تتضاعف المادة التي يمكن للأدب المقارن أن يناقشها، كما تزداد الحاجة إلى الاستفادة من نظريات التواصل والاتصال في الخطابات الإعلامية والأدبية.

وخلاصة القول إن العلوم التي تتداخل مع الدرس المقارن في تطبيقاته المختلفة علوم متعددة، وقد ظهرت هذه العلوم في شتى الدراسات المقارنة، منذ نشأة الأدب المقارن، وما زالت الدراسات الأدبية المقارنة تتفاعل مع العلوم المختلفة، وتوسع آفاقها المعرفية، لتشمل عدداً من المعارف والعلوم الإنسانية من خارج دائرة الأدب. والذي يميز الأدب المقارن، ويجعله أكثر قدرة على التفاعل مع العلوم المختلفة؛ هو اعتماده على المادة اللغوية التي تطورت كثيرا بعد الدراسات



Copyright © 2024, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

اللسانية الحديثة، واعتماده كذلك على النظريات الأدبية التي تتجدد من حين إلى آخر، ومن جهة أخرى وقوف الأدب المقارن على نصوص أدبية من لغات مختلفة، ونقاشه لمادة أدبية في ثقافتين مختلفتين، يجعله أكثر قدرة وانفتاحاً على التفاعل مع العلوم الأخرى والمسارعة إلى تبني كل ما يساعده في إقامة الدرس المقارن.

**أفق الدراسات المقارنة البينية (الصورة نموذجا)**

بما أن الأدب المقارن فرع من فروع الدراسة الأدبية بشكل عام، فمن البدهي أن تتسرب إلى الدراسة الأدبية المقارنة كثير من النظريات الأدبية، خاصة تلك التي تناسب طبيعة المقارنة الأدبية، والقارئ لتاريخ الأدب المقارن يرى كيف أثرت النزعة الاشتراكية في خلق مدرسة مختلفة في الأدب المقارن، تمثلت في المدرسة السلافية. أما من حيث النظريات الحديثة؛ فثمة عدد من النظريات الأدبية التي ناسبت طبيعة الأدب المقارن، ولم يدخر المقارنون جهداً في استثمارها وتوظيفها، ومن أهم هذه النظريات نظرية التلقي؛ التي تركز على التفاعل القائم بين النص وقارئ النص، وهو ما يناسب طبيعة الأدب المقارن في الأدب المقارن يركز على متلقي النص، ولكن من لغة أخرى.

وقد حرص المؤلفون في الأدب المقارن على مناقشة هذه النظرية وبحث توظيفها في الدراسات المقارنة نظرا لأوجه التشابه الكثيرة التي يراها الباحثين بين هذه النظرية وبين طبيعة الدراسة الأدبية المقارنة ومحاولة من الباحثين المقارن ين لمواكبة الدرس النقدي الأدبي الحديث. (باجو، ١٩٩٧، ص ٢٣٠) و(عبود، ١٩٩٩، ص ١٢٥) و (البديري، ٢٠٠٩، ص ٥٥) كما كان لنظرية التناص حضور كبير في الدراسات المقارنة، والتناص مصطلح صاغته جوليا كريستيفا لتشير به إلى العلاقات المتبادلة بين نصوص مختلفة، وهو لا يعني بالضرورة تأثير نص في نص آخر، أو تتبع المصادر والنصوص السابقة التي استلهم منها نص معين، بل تعني تفاعل الأنظمة الأسلوبية مع بعضها البعض. وتشمل العلاقات التناصية إعادة الترتيب، والإيماء، أو البنية والتحويل والمحاكاة. وجلي أن البحث في العلاقات بين النصوص يصب في اهتمامات الأدب المقارن الأصيلة، وإن كان الأدب المقارن يركز على التأثر بتلك النصوص التي جاءت من لغات أخرى.

وكسابقتها وجدت نظرية التناص مجالا خصبا في التطبيق في دراسات الأدب المقارن، نظرا ل اشتغالي التناص والأدب المقارن في العلاقات بين النصوص المختلفة وهو ما أمكن توظيفه في العلاقات مع نصوص من خارج اللغة القومية أي في الدراسات الأدبية المقارنة. البديري، ٢٠٠٩، ص ٤٦) و (Jirjur، 2008: 111-116) و(Ma'amir، 2008: 67)

أما نظرية الاستعمار فهي الدراسة الأكاديمية التي تناولت الإرث الثقافي للاستعمار والإمبريالية، وهي تركز على التبعات التقافية والبشرية. وتعتبر دراسات ما بعد الاستعماري تحليلًا



Copyright © 2024, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

نظريًا نقديًا للفكر المحرك للقوى الاستعمارية الأوروبية، وقد تفاعل الأدب المقارن بعمق مع هذه النظرية، خاصة أن كثيراً من النصوص الأدبية التي تناولها الدرس المقارن كانت نصوصاً غربيةً، ومن هنا وجد الباحثون من خارج الدول الغربية فرصة لنقاش هذه النظرية وتوظيفها في الأدب المقارن. وقد كان دخول هذه النظرية إلى ساحة الأدب المقارن من خلال مفهوم الصورة الذي هو أحد المسارات الرئيسة في دراسة الأدب المقارن. ومفهوم الصورة في دراسات الأدب المقارن يختلف عن الصورة الفنية أو الأدبية في الدراسات النقدية العامة، ففي الأدب المقارن يعمد الباحثون إلى دراسة الصورة العامة التي رسمها الأدباء والكتاب عن فئة من الناس أو كيان مختلف عنهم، وهي تنقسم إلى قسمين؛ الأول: الصورة التي تعرض آخر ينتمي إلى ذات اللغة كصورة الكريم في الشعر العربي أو صورة البخيل في الأدب الفرنسي، وهذا لا علاقة له بالأدب المقارن (Ḥannun، 1986: 23). والثاني: ما يدرس صورة شعب في أدب ولغة شعب آخر، وهذا هو القسم الذي يحظى بعناية الأدب المقارن ويمثل جزءً أساسا فيه. والصورة بهذا المفهوم قد تكون داخلة بشكل جزئي في المفهوم العام للصورة الفنية، ولكنها تختلف عنه بشكل جوهري في اختصاصها بصورة الآخر المختلف بلغته، وفي عنايتها بمضمون الصورة ودلالاتها أكثر من عنايتها بأنماطها وأساليبها(Ḥannun، 1986: 63).

ومن المعلوم أن هذه الصورة التي تصنعها المخيلة للشعوب والثقافات الأخرى قد لا تكون صحيحة بالضرورة، بل إنها أقرب للخطأ منها للصواب نظراً للتعميم الذي تتسم به ولدور الظروف التاريخية التي يغلب عليها التنافس والحروب في صناعتها وصياغتها. ومن هنا كثر استخدام مفهوم الصورة النمطية (stereotypes) باعتبار أن أكثر ما تختزنه الذاكرة الجماعية عن الآخر المختلف يميل إلى السلبية والمبالغة ويعتمد في كثير منه على القصص والأخبار والإشاعات التي قد لا يكون لها نصيب من الصحة.

إن أهمية صورة الآخر في أدب أي أمة أنه يكشف الخصائص العميقة لهذه الأمة في أعين أبنائها، والمكونات الأهم لهويتها، لأنهم إنما يتناولون الآخر ويتحدثون عنه بإبراز الجوانب التي يرون أنه يخالفهم فيها، ولذا كانت دراسة صورة الآخر في الأدب العربي لا تبرز الخصائص التي يسبغها العرب على مخالفيهم والصورة التي يرسمونهم بها فحسب، بل تكشف في جانب كبير منها عن خصائص الهوية العربية في نظر الأدباء ،والعوامل الأهم في تكوينها والتي تميز العرب عن غيرهم من الشعوب.

ويؤكد عبد المجيد حنون أن كتب الأدب المقارن تجمع على صحة انتماء هذا الباب إلى الأدب المقارن (Ḥannun، 1986: 63) وذلك باعتباره داخلا تحت قاعدة التأثر والتأثير التي هي أحد أسس الأدب المقارن، بل هي عموده الفقري. (Ḥannun، 1986: 62) وتكتسب صورة الآخر في الأدب المقارن أهمية استثنائية باعتبارها واحدة من أهم ميادين الدراسة المقارنة، وأغناها بالبحوث، وأكثرها صلة



Copyright © 2024, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

بحياة الشعوب وأدبها والمؤثرات فيها، وقد تنبأ محمد غنيمي هلال قديماً بأن هذا الباب من أبواب الأدب المقارن "سيكون من أوسع ميادين الأدب المقارن وأكثرها روادا في المستقبل" (هلال، ١٩٦٤، ص ٤١٩) وهو ما حصل فعلا حين امتزج مفهوم الصورة في الأدب المقارن بنظرية ما بعد الاستعمار، ليناقش أحد أهم وأخطر الخطابات الأكاديمية التي تسير العقلية الغربية، وتؤثر على العلاقة بين الشرق والغرب، وهو ما أنتج أحد أبرز الباحثين في الدراسات الاستشراقية، وأحد أهم الكتب الأكاديمية في هذا السياق، أعني بذلك إدوارد سعيد ودراسته الشهيرة عن الاستشراق. (أشكروفت، أهلواليا، ٢٠١٦، ص ٧١)

لقد كان إدوارد سعيد حاصلاً على درجة الدكتوراه في الأدب المقارن من جامعة هارفارد الأمريكية، وقد طبق في دراسته عن الاستشراق مفهوم الصورة في الأدب المقارن، مستعينا بنظرية ما بعد الاستعمار، وقد حاول في كتابه (الاستشراق) أن يكشف عن آلية "تمثيل الآخر لدى أوروبا منذ ما يقارب القرن الثامن عشر كونه ميزة لهيمنتها الثقافية. يصف (الاستشراق) النظم المختلفة والمؤسسات وعمليات التحقيق والأساليب الفكرية التي بواسطتها جاء الأوروبيون ل"معرفة الشرق" عبر العديد من القرون التي وصلت إلى ذروتها أثناء نهوض وتماسك امبريالية القرن التاسع عشر"(أشكروفت، أهلواليا، ٢٠١٦، ص ٧١). الخطورة التي يمثلها كتاب الاستشراق أنه كشف عن الدور الذي لعبه المستشرقون طوال قرنين من الزمان في رسم صورة محددة عن الشرق كانت هي المسؤولة عن تكوين المخيلة الغربية عن الشرق بشكل عام، وعن العالم العربي على وجه الخصوص. فقد كان حصيلة الكتابات الكثيرة والرسومات الفنية التي صورها المستشرقون عن البلاد العربية الرسم الصورتين متناقضتين ترسختا في العقلية الغربية عن العالم العربي بشكل عام، كانت الصورة الأولى تمثل البلاد العربية بلاداً للسحر والجواري واللهو والطرب، بما يشبه أجواء ألف ليلة وليلة، بينما جاءت الصورة الأخرى لتصور العرب والشرقيين كمتدينين سذج يحتاجون إلى من يأخذ بأيديهم ليلتحقوا بركب الحضارة الغربية. وبذلك كان المستشرقون والبيئات الأكاديمية الغربية بشكل عام غير محايدين في هذا الخطاب الاستشراقي، والذي كان برسمه لهذه الصورة داعما أساسيا - بوعي أو بغير وعي - لحركة الاستعمار التي اجتاحت (العالم الثالث) كما يسمونه.

وهكذا استطاع الأدب المقارن أن يجد في مفهوم الصورة فرصة لتطوير دراساته الأدبية لتكون أكثر التصاقا بالواقع الفكري والثقافي، وتجدد الدرس المقارن بفتح لأفق التعاون مع النظريات الحديثة، واستفادته من التخصصات الأخرى. ويكفي أن نعلم أن إدوارد سعيد بكتابه عن الاستشراق قد فتح الباب لكثير من الدراسات المشابهه في عدد من اللغات، وقد ذكر الكاتب الأمريكي Joshua Muravchik جوشوا مورا فيتشك أن إحصائية نشرت عام ٢٠٠٥ تشير الى أن ٨٦٨ مقررا دراسيا في الولايات المتحدة وحدها تجعل من كتاب إدوارد سعيد مرجعا رئيسا لها. وهي قاعات تختلف



Copyright © 2024, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

تخصصاتها بين أدبية وسياسية، واجتماعية وإعلامية وغيرها. ("Enough said!," 2013) كما أُلف عنه أكثر من أربعين كتابا باللغة الإنجليزية وحدها. أحدها الكتاب الشهير الذي أصدرته جامعة كامبردج عنه بعنوان The Cambridge Introduction to Edward Said(مكارثي، ٢٠١٠) (مقدمة جامعة كامبردج عن إدوارد سعيد). (Al-Harbi، 160-127 :2019)

وما زالت كثير من مباحث الأدب المقارن بشكل عام، ودراسات الصورة صورة الآخر بشكل خاص قابلة للتطبيق في بيئات مختلفة، والتفاعل مع تخصصات شتى، أيضا وما زال في الأفق ثمة مجال للتعاون بين هذه التخصصات، في دراسات بينية تكون أكثر جدوى وفاعلية وأثراً في الدرس الأدبي المقارن، وهو ما يجعل أدب المقارن نفسه أكثر أثراً وجدوى في المجتمع، خاصة حين يتفاعل مع الخطابات السياسية والإعلامية والشعبية كذلك، وكلها خطابات قابلة لتطبيق نظريات الأدب المقارن عليها، ولعل ذلك يكون وأكثر جدوى ونفعا للقارئ والمجتمع.

**الخاتمة**

رغم أن التخصص الدقيق في أي علم من العلوم هو الطريق الأمثل لتطوير العلم ذاته، والخروج بنتائج أكثر دقة وأثراً؛ إلا إنه من المؤكد للباحثين المعاصرين أن زمن الانكفاء على التخصص الوحيد سيكون أقل جدوى للباحث وللمجتمع أيضاً، مما دفع بكثير من الجامعات إلى التركيز على ما أسمته بالتخصصات البينية، ومحاولة تعزيز التعاون بين التخصصات المختلفة. والأدب المقارن بدوره تخصص دقيق، يتعامل بدقة وحذر مع نصوص أدبية من لغات شتى، وقد أثمر عن دراسات مميزة ولافتة، ولكنه بحاجة إلى تطوير آلياته لكي لا يبقى حبيسة الحجرات الأكاديمية التي تنتج أبحاثا لا تهم إلا المتخصصين. وقد حاولت هذه الورقة أن تسبر أغوار هذا الأدب المقارن لافتة للنظر إلى الأهمية الاستثنائية التي صاحبت نشوء هذا الأدب، فهو أدب ناشئ في فترة استثنائية من التاريخ الإنساني، فترة شهدت ثورة علمية وصناعية، أنتجت مزيداً من وسائل التواصل والطباعة والاتصال العلمي بين الشعوب المختلفة، كما أنها فترة غنية بالتراث الفكري الذي كان أكثر انفتاحاً وتطلعاً للتعاون مع الآخر، واكتشاف الأمم الأخرى، ولا يمكن فصل تلك الفترة عما عقبها من دعوات إمبريالية سرعان ما أنتجت استعماراً شمل غالب العالم القديم. هذه الظروف التاريخية الخاصة والاستثنائية في تاريخ البشرية هي التي أنشأت الأدب المقارن، وهي التي أنتجت كذلك نماذج لباحثين أثروا في نشأة الأدب المقارن، وساهموا في تعريف شعوبهم وقرائهم بآداب الأمم الأخرى، وهم بهذا الفعل كانوا أول من طبق الدراسات البينية بشكل من الأشكال، إذا بحثوا في نصوص من خارج لغتهم، ودرسوا تاريخاً غير تاريخهم، وتعرضوا لعوامل فكرية وثقافية من خارج بيئتهم.



Copyright © 2024, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

من جهة أخرى كان الأدب المقارن نموذجاً لافتا للتعاون مع التخصصات الأخرى فهو تخصص يطالب الباحث فيه ابتداء بالاطلاع على كثير من العلوم والمعارف، وهي علوم لا تقتصر على إتقان أدب واحد، بل إتقان أدبين مختلفين، وتشمل المعرفة الدقيقة بتاريخ هذه الآداب، والظروف الثقافية والاجتماعية المحيطة بها، ودراسة الظروف السياسية التي عاصرتها، وربما تعرضت للظروف الاقتصادية أو الدينية بحسب حاجة الدراسة المقارنة. وقد ضرب هذا البحث أمثلة لبعض هذه العلوم التي تتداخل مع الدرس الأدبي المقارن، كعلوم اللغة المختلفة واللسانيات الحديثة، إضافة إلى علم التاريخ والإعلام وعلوم الاتصال الحديث. وقد عالج المبحث الثالث كيف تفاعل الأدب المقارن مع النظريات الأدبية الحديثة، التي هي نتاج للفكر والفلسفة في عصرها، فنظريات التناص والتلقي وما بعد الاستعمار وغيرها من النظريات الحديثة لقيت في الأدب المقارن أرضا خصبة للتطبيق، واستفاد منها المقارنون في تطوير أبحاثهم، والخروج بنتائج أكثر فاعلية ودقة. ورغم أن مفهوم الصورة في الأدب المقارن أحد أقدم مسارات الدراسة المقارنة، إلا أن هذا المسار اكتسب زخماً كبيراً حين وظف في دراسات ما بعد الاستعمار، وقد بين البحث كيف كانت دراسة إدوارد سعيد الشهيرة الاستشراق قائمة على الاستفادة من تفعيل دراسة الصورة؛ بتطبيق نظرية ما بعد الاستعمار عليها، فأنتج واحدة من أكثر الأبحاث والكتب أثراً وفاعليةً في الدراسات الأكاديمية الحديثة، وامتد أثره هذا الكتاب ليؤثر على دراسات الأدب المقارن بشكل خاص، ودراسات الأدب بشكل عام، بل تعدى أثره ليشمل تخصصات مختلفة من الإعلام والسياسة والاقتصاد والاجتماع وغيرها من العلوم الإنسانية، كما صار هذا الكتاب مرجعا للدراسات الأكاديمية في تخصصات كثيرة.

كما ظهر أثر هذا الكتاب في لغات شتى، خاصة لغات الأمم المستعمرة وتبين الكتب التي كتبت عن إدوارد سعيد -وهي كثيرة- الأثر الكبير الذي خلفه هذا الرجل وكتابه عن الاستشراق الذي استفاد فيه من نظرية الصورة في الأدب المقارن في كثير من الباحثين وكثير من التخصصات حول العالم. وبهذا يكون مفهوم الصورة نموذجاً للتفاعل الممكن بين مسارات الأدب المقارن والنظريات الحديثة، التي تفعل التعاون بينه وبين التخصصات المختلفة، وتجعل نتائجه الأكاديمية أكثر فاعليةً وأثراً، كما أنها تفتح للباحثين المقارنين أفقاً كبيراً للتعاون مع التخصصات الأخرى، وتوسيع نظرتهم الأكاديمية البحثية، وهذا كله ضروري لبعث الروح في الدراسات المقارنة، وتجديد دمائها، وإخراجها من الصورة النمطية التقليدية التي لبستها إثر تركيز بعض الباحثين على المقارنة بين النصوص الأدبية، دون محاولة الخروج من ذلك إلى إطار الفكر الذي يسهل هذه النصوص، ومحاولة تطبيق نظريات جديدة قد تكون أكثر جدوى. آملا أن تفتح هذه الورقة آفقا للدارس الأدبي المقارن، وتلفت انتباه الباحثين إلى الإمكانات الخاصة التي بملكها الأدب المقارن، وما يمكن أن يثمره التعاون الفاعل مع النظريات الحديثة، ومحاولة توسيع الأفق الأدبي ليشمل المؤثرات الفكرية المعاصرة.



Copyright © 2024, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

## قائمة المراجع

‘Abbud, ‘Abduh. Al-Adab al-Muqaran: Mushkilat wa Afaq. Dimashq: Ittihad al-Kuttab al-‘Arab, 1999.

‘Ubayd, Yasin. Al-Adab al-Muqaran. ‘Amman: Markaz al-Kitab al-Akademi, Ṭ.1, 2019.

Al-Badiri, ‘Ali. Al-Adab al-‘Arabi al-Muqaran fi Ḍaw’ Jamaliyyat al-Talaqqi. Uṭrūḥah li Nayn Darajat al-Dukturah, Jami‘at al-Baṣrah, 2009.

Al-Baṭuṭi, Mahir. Al-Riwayah al-Umm: Alf Laylah wa Laylah wa al-Adab al-‘Alami. Al-Qahirah: Maktabat al-Adab, 2005.

Al-Baz‘i, Sa‘d ibn ‘Abd al-Rahman. “Al-Dirasat al-Bayniyyah wa Taḥaddiyat al-Ibtikar,” *Majallat al-Adab*, 25(2). Tersedia di: http://search.mandumah.com/Record/521083

Al-Harbi, Salih. “Dirasat Ṣurat al-Akhar fi al-Adab al-‘Arabi wa Athar Edward Sa‘id,” Majallat Jami‘at Ṭaybah: li al-Adab wa al-‘Ulum al-Insaniyyah, ‘Adad 20, 2019.

Al-Jahizh, ‘Amr ibn Baḥr. Kitab al-Ḥayawan. Tahqiq: ‘Abd al-Salam Harun. Beirut: Dar al-Jil, 1996.

Al-Khatiib, Husam. Afaq al-Adab al-Muqaran ‘Arabiyyan wa ‘Alamiyyan. Dimashq: Dar al-Fikr, 1992.

Al-Shabi, Nur al-Din. “Idghar Muran wa Ahamiyyat al-Dirasat al-Bayniyyah,” Majallat al-‘Ulum wa Afaq al-Ma‘arif, Jami‘at ‘Ammar Thaliji, al-Jaza’ir, 3(2).

Al-Suwaidan, Naṣir Muḥibbi. Al-Taṣnif fi al-Maktabat al-‘Arabiyyah. Al-Riyad: Dar al-Marikh, 1982.

Baju, Hanri. Al-Adab al-‘Amm al-Muqaran. Tarjamah: Ghassan al-Sayyid. Dimashq: Mansyurat Ittihad al-Kuttab al-‘Arab, 1997.

Bal‘i, Aaminah. “Al-Dirasat al-Bayniyyah wa Ishkaliyyat al-Muṣṭalaḥ al-‘Abir li al-Takhaṣṣuṣat,” Siyaqat al-Lughah wa al-Dirasat al-Bayniyyah, 2(1), 2017, 249–263. doi: 10.21608/siaqat.2017.203453

Barakat, ‘Abd al-‘Aziz. “Al-Ishkaliyyat al-Manhajiyyah fi al-Dirasat al-Bayniyyah,” Al-Majallah al-‘Arabiyyah li Buḥuth al-I‘lam wa al-Ittiṣal, 2016. doi: 10.21608/jkom.2016.109573

Bashkruft, Yil.; Ahlawaliya, A.; wa Baal, Edward Sa‘id. Sirah Fikriyyah. Tarjamah: Suhail Najm. Beirut: Dar al-Rafidain, Ṭ.1, 2016.

Basnit, Suzan. Al-Adab al-Muqaran: Muqaddimah Naqdiyyah. Tarjamah: Amirah Hasan Nuwayrah. Al-Qahirah: Al-Mashru‘ al-Qawmi li al-Tarjamah, 1999.

Belaala, A. (2017). Al-Dirāsāt Al-Bayniyyah Wa Isykāliyat Al-Muṣṭalaḥ Al-‘Ābir Li Al-Takhaṣṣuṣāt (Interdisciplinary Studies And The Problematic Of Cross-Specialty Terms). Siyāqāt Al-Lughah Wa Al-Dirāsāt Al-Bayniyyah, 2(1), 249–263. https://doi.org/10.21608/siaqat.2017.203453

Brauwir, S. S. Al-Dirasat al-Adabiyyah al-Muqaranah. Tarjamah: ‘Arif Hadiqah. Dimashq: Wizarat al-Tsaqafah al-Suriyyah, 1986.

Bughfalah, Ahmad. “Manhaj al-Falasifah al-Muslimin fi Taṣnif al-‘Ulum,” Majallat Ab‘ad, al-‘Adad al-Rabi‘, Janvi 2017.

Byir, Brunil; Bishwa, Klaud; Rusuw, Misyal. Ma al-Adab al-Muqaran. Paris: Dar Kulan, 1983. Tarjamah: Ghassan al-Sayyid. Dimashq: Dar ‘Ala’ al-Din, 1996.

Danyiyil, Hanri. Al-Adab al-‘Amm wa al-Muqaran. Paris: Dar Kulan, 1994. Tarjamah: Ghassan al-Sayyid. Dimashq: Ittihad al-Kuttab al-‘Arab, 1997.



Copyright © 2024, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

Duminighiz, Sayzar; Suwisi, Harun; Filanufya, Dario. Taqdim al-Adab al-Muqaran: Ittijahat wa Taṭbiqat Jadidah. Tarjamah: Fu'ad 'Abd al-Muṭṭalib. Al-Kuwait: 'Alam al-Ma'rifah, 2017.

Duyurant, Wul. Qiṣṣat al-Ḥaḍarah. Al-Qahirah: Lajnat al-Ta'lif wa al-Tarjamah wa al-Nashr, 1956.

Enough Said. (2013). The Pharmaceutical Journal. https://doi.org/10.1211/pj.2013.11120068

Gotthold Ephraim Lessing. (n.d.). Research Begins Here - New World Encyclopedia. https://www.newworldencyclopedia.org/entry/Gotthold_Ephraim_Lessing

Ḥannun, 'Abd al-Majid. Ṣurat al-Faransi fi al-Riwayah al-Maghribiyyah. Al-Jaza'ir: Diwan al-Maṭbu'at al-Jaza'iriyyah, 1986.

Jirjūr, M. H. (n.d.). Mā Bayna Al-Adab Al-Muqāran Wa Al-Tanāṣṣ. Mawqi' al-Duktūrah Mahā Jirjūr. https://www.drmahajarjour.com/Bouhous/2012/tanas.pdf

Ma'amir, Muhammad Faysal. "Al-Naṣ al-Adabi min Naẓariyyat al-Adab al-Muqaran naḥw Naẓariyyat al-Tanāṣṣ," Majallat Abhath fi al-Lughah wa al-Adab al-Jaza'iri, 'Adad 5, 2008.

Mahā Jirjur. "Ma Bayn al-Adab al-Muqaran wa al-Tanāṣṣ." Tersedia di: https://www.drmahajarjour.com/Bouhous/2012/tanas.pdf

Makki, Al-Tahir Ahmad. Al-Adab al-Muqaran: Uṣuluhu wa Tathawwuruh wa Manahijuh. Al-Qahirah: Maktabat al-Adab, Ṭ.4, 2002.

Marius, Franswa Guyar. Al-Adab al-Muqaran. Tarjamah: Hanri Zughayb. Beirut: Mansyurat 'Uwaydat, 1988.

Newell, W. H. (2018). Advancing Interdisciplinary Studies. ERIC - Education Resources Information Center. https://files.eric.ed.gov/fulltext/EJ1237447.pdf

Vick, D. W. (2004). Interdisciplinarity and the Discipline of Law. Journal of Law and Society, 31(2), 163–193. https://doi.org/10.1111/j.1467-6478.2004.00286.x



Copyright © 2024, This is an open access article under the CC BY-SA 4.0 license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)